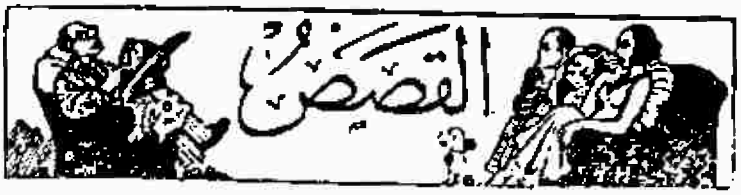

مادلـــــين

للأديب يوسف جبرا

« لم تجف الزهور البيضاء التي وضعوها على قبرك ، ولم تتلاش أصداء النواح من الأفق بعد . لقد كف جرس الموتى عن دقاته الحزينة المتفرقة ، ولكن الأسى لم يكف عن دق الصدور التي اشتملت على صورتك الحبيبة يا مادلين ، والدمع لم يكف عن الاشتعال في مآق تسهر الليل بعدك ...

ها هي ذي الشمس تغمض جفنيها بين فلذات من الدم القاتم ، وها هو ذا وشاح الليل يلف الكائنات ، وها هي ذي الأشجار الضخمة في نواحي المكان ساكنة واجمة ... الجميع يشاركوني آلامي ووحدتي ... وأنت في ظل لحدك يا مادلين راقدة ، كما رقدت ماجد ولين السكينة من قبل ! »

* * *

أقبلت علينا صاحبة النزُل في صباح تقول : بشرى لكم ... إن أسرة صغيرة من مواطنيكم توشك أن تحل هنا : أب وابنه وابنته ... لقد أعددنا الغرفة المجاورة وهيأناها ، وستكون هنا في المساء » .

وانطلقت صاحبة النزل فانضمت إلى أختيها في الغرفة الكبيرة التي كنا نسميها « الإدارة » . كن ثلاث أخوات سوريات يشتغلن بالخياطة ويدرن هذا النزل الصغير الأنيق . وكان للثلاث طابع واحد ... بدانة مفرطة تصحبها رقة وظرف — وكثيراً ما تكون البدانة والرقة صنوان !

أما « الإدارة » فهي المكان الذي تجلس « الركائب » الثلاث في ناحية منه معظم النهار ... بينما تتناثر في النواحي الأخرى ماكينات الخياطة ، والفتيات اللواتي جئن للمهنة ، وخليط من الأدوات والأقمشة والسلال ... دائماً ! وفي هذه الغرفة يتشاور الثلاث البدينات همساً في ما يهمهن من الأمور التي تختص بالنزلاء ؛ وفي هذه الغرفة تقوم « الزبونات » بتجربة « البروفة » أمام المرآة وتسلم الثياب التي تكمل خياطتها .

وفي هذه الغرفة تنعقد جلسات عائلية بين الأسر القيمة بالنزل ، فينصت الجميع إلى حكايات طريفة تحكيها « الركائب » عن أصلهن الرفيع وعن الشبان الذين تقدموا للزواج منهن في غابر الأيام ... وكان نصيبهم جميعاً الرفض !

في ذلك المساء قدمتنا كبرى الأخوات الثلاث إلى مادلين وأسرتها الصغيرة ... أما أبوها فكان رجلاً مسناً ، في فمه أسنان صناعية ، وعلى عينيه منظار قاتم لا تكاد ترى عينيه من ورائه . أما الأخ فكان شاباً ظريفاً لما ينته من دراسة الطب . أما هي — مادلين — فقد بدت فتاة في الربيع الخامس والعشرين من عمرها ، نحيلة ، سمراء ، في عينيها لهيب قاتم ، وفي خصلات شعرها الأسود المهدل فن وعبقرية .

كانت الصورة الأولى التي وعتها لها ذاكرتي هي تلك ، وكانت إذاك في ثوب بنفسجي اللون ، يزيد لهب عينيها قتامة وسحراً . كانت مرحة كثيرة الضحك ، وكان أول ما فعلته أن دعتني إليها — وكنت إذاك في السادسة من العمر — فقالت لي : « ما اسمك ؟ » وحاولت أن أجيب ... ولكن قبلتها كوت في وخدي ، وأرسلتني أعدو إلى أمي في تعثر وخجل ! ..

وسرعان ما اتصل الود بين مادلين وبين أمي ، فكانتا تشتركان في كل أمر من الأمور ... كنت تراهما معاً طيلة الوقت في المطبخ ، أو أمام ماكينة الخياطة ، أو في الخارج تبتاعان شيئاً ... إلى آخر هذا كله ! .

واتصل الود أكثر من هذا بيني — أنا الصغير — وبين مادلين . كانت دائماً تدخر لي جانباً من الحلوى ، وكانت دائماً تستقل هي بصنع ما أحتاج إليه من قطع للملابس الصغيرة ، وكانت في كثير من الأحيان تصحبني معها إلى الخارج ... ومن قبل ومن بعد كانت تحيطني بساعديها وتضمني إلى صدرها الحار لتغمرني بقبلات لا عداد لها ... قبلات محرمة والهة أشعر أنا

الصغير بأنها تختلف كثيراً عن قبلات أمي وسائر من بالمنزل …

أما من ناحيتي ، فقد كنت أحب كثيراً أن تقبلني ، وأن أملأ خياشيمي الصغيرة بعطر البنفسج الذي يفوح دائماً من شعرها الحالك . وكنت أحب أن ألوذ بغرفتها التي كانت غالباً ما تخلو من الأب والأخ … وهناك أطل من نافذة كبيرة على سطح دار مجاورة — كانت على ذلك السطح بقايا لعب ملونة ، وأصص صغيرة في كل واحدة منها زهرة حمراء ! .

… إلى أن كان ذلك اليوم الذي رأتني فيه أمي بين ذراعي مادلين وهي تقبلني تلك القبلات المحمومة ، فدعتني إلى غرفتنا بعيداً عن أنظارها ، ثم عبست في وجهي وحذرتني قائلة : لا تدعها تقبلك مرة ثانية .. أفاهم أنت ؟ لا تذهب إليها إن دعتك .. إياك ! وعرتني الدهشة ، ولم يستطع عقلي آنذاك أن يفسر ذلك التصرف الغريب .. أتحرمني من مادلين ؟ .. لماذا لا أدعها تقبلني ؟ لماذا لا أذهب إليها ..

رحمك الله يا أمي ، فما كنت آنذاك أستطيع أن أدرك شيئاً مما كان يدور بخلدك . أنت يا من حنكتك التجارب وعرفت من أمور الدنيا الكثير . أما الآن ، وقد كبرت واتسعت مداركي ، فإني أعتب عليك يا أمي — أعتب عليك حتى وأنت في عالمك الآخر : لماذا دار بخاطرك ما دار عن مادلين ؟ هل كانت مادلين كغيرها من البشر ؟ لماذا حرمتني منها ، وحرمتها مني ؟ إن الأمر لم يكن أكثر من أنها فتاة جياشة العاطفة طال بها انتظار الزواج والأمومة .. فلماذا قصرت عن فهمها ؟ …

وقد كان محالا أن أقطع صلتي بها هكذا دفعة واحدة ! أريد على الأقل أن أعود لرؤية الصور الجميلة التي بغرفتها ، وأن أطل أحياناً من النافذة الكبيرة على السطح الملىء باللعب وأصص الزهور !.. وهكذا مضيت إلى أمي ، وتوسلت إليها والدموع في عيني قائلا : لا أدعها تقبلني .. لكن دعيني أذهب إليها إذا نادتني مثلا ! فنظرت إلى نظرة حادة ، وقالت : حسن .. سنرى !

« وفي ذلك المساء دعوتني إليك يا مادلين ، وأريتني آلة للتصوير اشتراها أخوك ، ثم حاولت من بعد أن تقبليني .. كنت أن أستسلم أول الأمر حسب ما اعتدت ، لكني تذكرت والدتي .. فاضطربت ! لكنك ألححت يا مادلين ، فلما حاولت أن أتخلص من ذراعيك .. عرت وجهك سمات الدهشة ، وقلت ماذا .. ألا تريد أن أقبلك ؟ »

وحاولت أنا أن أنظر في عينيك لكنني لم أستطع ، فأرخيت أهدابي ، وكان طبيعياً أن تلحظي في تصرفي إزاءك شيئاً غريباً طارئاً ، فوضعت يديك على كتفي ، وحدقت في بعينين تجلت فيهما الحيرة ، وقلت : لماذا ؟ .. لماذا لا تريد !؟ »

وفي براءة الطفل ، كأني أريد أن أتخلص من هم يجثم على صدري ، أو كأنني أريد أن ألصق التهمة بصاحبتها ، رميت في وجهك بالحقيقة وبدى تخفي اضطراب وجهي … قلت : أمي قالت لي . « لا تدع مادلين تقبلك ! » . فكأنما أصابتك لطمة شديدة … لقد شحب وجهك الحبيب ، وغامت عيناك فتلاشى منهما ذلك الألق الحار في الضباب . صرفتني في لطف ، لكني مضيت إلى تلك الشرفة الكبيرة التي تطل على الميدان الفسيح ، وهناك انتحيت ركناً بعيداً ، وجلست أبكي — لم أكن أبكي وحدي في تلك الساعة .. لقد رأيت في يدك منديلا صغيراً وأنت تحملين الطعام إلى أبيك في الليل !

ولم يكن في مقدورك أن تطيقي الصبر أو السكوت ، ففي صباح اليوم التالي فاتحت أمي في الأمر — كان ذلك وهي تطهو الطعام — فعاتبتها عتاباً رقيقاً ، فأنكرت يا مادلين وقالت إنني — أنا — قد اخترعت ذلك الشيء اختراعاً ..!

ولم تصف القلوب في تلك الساعة ، فكان أن تشاجرتا من بعد كطفلتين ، وكان أن انطلقت كل واحدة إلى غرفتها تغسل كبرياءها بفيض من الدموع السخينة .

كان اليوم التالي يوم الرحيل ، فاستطاعت كبرى الشقيقات الثلاث أن تصلح بينكما ، فتعانقتما عناقاً مؤثراً ، وأبت أمي إلا أن ترتدي ثياب الخروج من وقتها وتصحبك أنت وأسرتك الصغيرة إلى القطار .! أما أنا ، فقد أوعزت أمي لإحدى الشقيقات أن تأخذني إلى « الإدارة » لتقص علي قصة شائقة ، حتى لا أفكر في اللحاق بك . كانت تعلم مدى تعلقي بك ، فكنت عند « حسن ظنها » وهربت من الأخت الطيبة إلى الشرفة المطلة على الميدان الفسيح ، ومن هنـــاك جعلت أصغي إلى أصوات القطر الغادية والرائحة ، متخيلا إياك وأنت ترحلين إلى السودان !

مضت على أيام من بعدك قضيتها في ذكرى أليمة ، كلما أتاني صفير القطار اغرورقت عيناي بالدموع ، وكلما نظرت إلى غرفتك الخالية أكل قلبي الأسى . ثم كان أن انتهت أيامنا بدورنا ورحلنا إلى السودان — كنت أحس دائماً بفرحة كلما عدنا إليه ، لكنها كانت هذه المرة فرحة زائدة … تذكرني

بشعوري يوم عدت إلى دارنا بعد أن ضللت فى إحدى المرات نهاراً كاملاً . ولقد تخيلت أنى سرعان ما ألقاك يا مادلين ، لكن آمالى خابت إذ عرفت أنك تقيمين فى بلد مجاور ، ومن ثم فلا أمل فى شيء أكثر من زيارات معدودة ... ربما اعترضت أمى أيضاً على أن تصحبنى فيها .. ما كان أشد فرحتى يوم زرنا بيتك للمرة الأولى ! كان البيت جميلاً يوحى بالرغد والسلام ، وكانت بالفناء شجرة تين جعلت تقطفين منها وتطعمينني ، وكانت بالفناء الآخر « عشة » كبيرة فيها سرب من اليمام الجبلى ، وقبل هذا وذاك كنت أنت هناك .

لقد كانت المرة الأولى والأخيرة يا مادلين ، وإنى لا أزال أذكر كيف ظهرت صرحة أمام الجميع حتى لكأنك فتاة مقبلة على الزواج! ماذا قلت! سامحينى .. فربما أكون قد مسست شعورك! لا أنكر أنى تساءلت طويلا ... لم بقيت دون زواج حتى ذلك الوقت ! لو كنت زوجة آنذاك وكان لك أطفال ، لما أفرغت على كل هذا الحب ، ولما تركت فى حياتى ذلك الأثر العميق ! ...

ثم كان يا مادلين أن حملوا إلينا ذلك النبأ السيء ، حملته إلينا جارة تمت إليك بصلة قرابة ، قالت إنك شغفت بالقصص وأدمنتها إدماناً شديداً — وجدك أخوك ذات يوم نائمة وعلى صدرك قصة حب ضممت عليها راحتيك ... فما كان منه إلا أن جذبها منك فى عنف وهو يصرخ بك : استيقظى ! كانت حماقة منه كلفتك أعصابك . لقد دهتك نوبة حادة انتهت بذلك « الشلل » الذى أصاب إحدى يديك ! أواه يا مادلين ! قالوا إنك بت ضحية للسقم والملة ، وإنك تذوين كغصن فى طريقه إلى الجفاف . كان من سخف الأيام أن منعتنا زيارتك فى ذلك الوقت ، وأن شهوراً مرت فكدنا ننسى أمرك كل النسيان .

وفى يوم سعيد — أحد أيام العيد الثلاثة — كانت ساحة البيعة فى أوج زينتها ، تموج بالناس رجالا ونساء ، شيوخاً وأطفالا ، وكانت هناك حلقة منهم تحت شجرة « اللاوب » الضخمة فى ظل البرج الكبير ، وفى وسط الحلقة شاب ظريف يقوم ببعض الألعاب ليضحك الناس . لمحتك فجأة ، وأنا على حافة الجدار مع ثلة من الرفاق ، مع فتاة أخرى فى ناحية من المكان . لم أكد أعرفك يا مادلين ، لكننى أحسست أنه لا بد أن تكونى أنت ، فوثبت إلى الأرض دون أن أعى ، ورحت أخترق جموع الناس وقلبى يدق فى خبل !

آه ، كم كنت جميلة فى ذلك اليوم يامادلين ! كنت فى معطف من الصوف أحمر اللون ، وكانت على رأسك قلنسوة بديعة حمراء أيضاً ، وكنت كأحسن ما تكون الفتاة صحة وجمالا . لم تبخلى على بقبلة صغيرة فى خدى ، ولكن ترقرقت فى عينيك آنذاك دموع الفرح والسعادة ؟ لقد رأتك أمى فى تلك الساعة فأقبلت عليك تحييك فى شوق واهتمام .. وأى اهتمام ! لقد أثرت يا حبيبتى يومها حسد النساء وألهبت قلوب الرجال — وصدق أننى فرحت لك كل الفرح إذ قالوا إنك ستتزوجين ... أخيراً !

ستجدين إذن من تفرغين عليه ذلك الحنان المكبوت ، وسيروى حقلك الظامئ أيضاً بفيض من الحب والرعاية .. لكن جاء ذلك اليوم المشئوم .. بعد شهور من الزمن .. اهتز البرج الكبير فى الصباح ، ودق الجرس الضخم فى أعلاه دقات متقطعة رهيبة !

لقد غرقت سفينة كانت تحمل خطيبك .. وغرق كل أمل باق لك فى الحياة ! لم تتحملى الصدمة يا مادلين .. فعادتك نوبة شديدة كانت هى النهاية ! هاهى الشمس تدرج فى السماء ، وهاهى الطيور البيضاء تنشر أجنحتها على قبة البيعة ، وهاهو الندى يترقرق بعد على الغصون وإلى الساحة الكبيرة يحملون نعشاً أبيض صغيراً ، نعشك أيتها العروس !

يوسف جبرا

إعلان

يعلن مجلس مديرية الدقهلية فى المناقصة العامة عن ترميمات مساعده عام ٤٩/٥٠ فمن يرغب فليتقدم للمجلس بطلب على عرضحال دمغة فئة الثلاثين مليما برسم سعادة رئيس المجلس ودفع ٥٠٠ مليم من كل مجموعة وأن يكون العطاء مصحوبا بتأمين إبتدائى قدره ٢٪ وقد حددنا لفتح المظاريف ظهر يوم السبت ٢٥ يونيه ١٩٤٩ بديوان المديرية والمجلس حر فى قبول أو رفض أى عطاء بدون إبداء الأسباب .

٢٠٠٤

إدارة البلديات العامة — طرق

تقبل العطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٩٤٩/٦/٢٦ عن عملية الرصف بدمياط وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليماً مقابل دفع مبلغ ٦ جنيه خلاف أجرة البريد ١٩٥١